تربية

دنيز مشنتف

لا تبرير له إلا حين يتساوى الموت مع الحياة

هل يأس أي مواطن يبرّر الإنتحار ؟

طرحت حالات الانتحار العلنية، في الفترة الاخيرة، اسئلة كبيرة عن اليأس الذي وصل اليه المواطن اللبناني من زاوية هل هذا الشعور يبرر الانتحار؟ النظرة العلمية ترى جذور هذه القضية الانسانية في الفقر الذي يضع الانسان امام خيارين: اما قتل نفسه او قتل الغير

من يقرر الانتحار عادة، يختار السرية المطلقة لتنفيذ قراره هذا برغبة منه في ترك العالم الذي خذله بغفلة عن الجميع. لكن ان يكون الانتحار علنيا، بالشكل الذي اختاره كثيرون، ففي المسألة ابعاد اخرى. اهم ما فيها، رغبة هذا الشخص في ترك بصمة في مجتمعه لم يستطع تسجيلها وهو على قيد الحياة.

ان يصل الانسان الى الشعور بأنه مواطن ميت، محترق اجتماعيا ونفسيا، فما قيمة ان يقدم على احراق جسده ما دام هو كذلك. هكذا نظر هؤلاء الى انفسهم كمواطنين منسيين، فارادوا بانتحارهم ان يؤكدوا على وجودهم عبر توجيه رسائل متعددة الاتجاه، خصوصا الى المرجعيات الغائبة. نعرف ان فسحة الامل وان ضيقة جدا تبقي الانسان متجذرا في الحياة رغم ازماته معها، لكن فقدانه نفسيا يصل بالشخص المشبع بمشاعر اليأس الى حائط مسدود، فيتساوى عنده الموت مع الحياة ليجد حلا اخيرا لمشكلاته على الارض، بوضع حد لحياته.

حاورت "الامن العام" الباحثة في علم الاجتماع السياسي الدكتورة هدى رزق في ظاهرة الانتحار العلني المشهود ودوافعها وسبل مواجهتها.

■ هل يعتبر الانتحار العلني ونحن نتذكر حالة جورج زريق نموذجا عن اليأس الذي وصل اليه المواطن اللبناني كي نبرره؟

□ اذا اردنا التحدث عن المواطن اللبناني، علينا التوقف في هذا الموضوع عند الناس الذين يعيشون ما دون خط الفقر الذي بات يشمل عددا كبيرا من اللبنانيين. اذا قصدنا احياء بيروت الداخلية، اي وسط العاصمة عدا عن الضواحي، سنلاحظ الي اي مدى هناك اناس في هذه المناطق، يعيشون ما دون خط الفقر. هذا ما يحصل على الرغم من وجود مؤسسات خيرية في لبنان، تحديدا دينية، اسلامية ومسيحية، المعروف عنها الاهتمام بهؤلاء الفقراء. لكن مع ازدياد نسبة الفقر في لبنان في السنوات الاخيرة، لم تعد المساعدات التي كانت تكفي عددا كبيرا منهم في السابق كافية اليوم، لأن الحياة باتت اكثر صعوبة والمساعدات العينية التي كانت توزع في الماضي، كالارز والسكر والمواد الغذائية لم تعد كافية لحاجات انسان اليوم. هناك التعليم والطبابة والادوية. ما يعني ان الحياة اصبحت استهلاكية اكثر من السابق، ومتطلباتها تفرض على المواطن اللبناني العيش ضمن الحد الادنى، علما ان الحد الادنى هذا غير متوافر للجميع، لأن سوق العمل لم تعد متوافرة لكل اللبنانيين. حتى ما كنا نطلق عليها اسم "البطالة المقنّعة" كبيع الكعك والعلكة واشياء اخرى من هذا النوع، بات الغرباء في البلد ينافسون اللبناني عليها. النازحون السوريون هم الذين يبيعون الكعك والعلكة وقناني المياه والمحارم الورقية على الطرقات اليوم، خصوصا الاولاد منهم، الامر الذي حجب هذا الرزق عن المواطن اللبناني ابن الاربعين او الخمسين عاما. حتى في زمن "البطالة المقنّعة" احتل النازح السوري مكان المواطن اللبناني الفقير. هذا الواقع فرض واقعا آخر، اذ في الماضي مثلا، لم نكن نشاهد سائق تاكسي يبلغ من العمر 70 عاما، اما اليوم فكل هؤلاء السائقين هم في هذا العمر تقريبا. الابناء في الماضي، كانوا يؤمّنون معيشة اهلهم، اما اليوم فلا قدرة للابناء على تأمين معيشتهم في حدها الادنى، لأن سوق العمل في لبنان غير متوافرة لجميع ابنائه، خصوصا لخريجي الجامعات. الامر الذي فرض عليهم السفر الى الخارج لاعالة انفسهم. لكن السؤال هنا، هل كل هذه الضائقة المعيشية تبرر الانتحار؟ انا شخصيا، لا ابرره، لكن من الممكن تبريره في حال واحدة فقط، عندما يفقد الانسان الامل في الحياة نهائيا، فيتساوى الموت معها في نظر هذا الشخص وفي اعماقه ايضا قبل اقدامه على الانتحار.

■ هناك اناس يعيشون في فقر مدقع من جيل الى جيل، واخرون يواجهون مأسي في حياتهم اكثر صعوبة من الازمات المعيشية ولا يتجهون نحو الانتحار. ما الفارق بين نماذج اجتماعية تتجه نحو هذا الخيار واخرى لا تختاره كحل نهائي لمشكلاتها؟

□ فقدان الامل على الصعيد الاجتماعي هو الذي يدفع الانسان الى الانتحار. لكن في المقابل اقول "ما اضيق العيش لولا فسحة الامل". فسحة الامل هذه هي التي تبقي الانسان متجذرا في الحياة على الرغم من ازماته معها. اما اذا وصل هذا الانسان على الصعيد النفسي الى طريق مسدود، فحينها سيتجه نحو الانتحار. علما انه مهما كانت المشكلات الاجتماعية او المالية كبيرة ومعقدة، نحاول دائما ايجاد حلول لها. لكن ذهاب جورج زريق الى الانتحار بالاسلوب الذي اعتمده، اي باحراق نفسه، يعني ان لدى هذا الشخص مشكلات نفسية، اضافة الى مشكلاته الاجتماعية. فلنشرح هذا الوضع: كانت مدرسة الراهبات التي كانت تتعلم ابنة جورج زريق فيها تؤمّن له الحد الادنى لمواصلة هذه الفتاة دراستها، فانتظرته اكثر من سنة لترتيب وضعه المالي، علما ان زوجته كانت تعمل في المدرسة نفسها ايضا. هذا كل ما نملكه من معطيات عن زريق، ولا معطيات اخرى عنه في هذا المجال. السؤال هنا يفرض نفسه، هل الامل الذي فقده هذا الانسان مقتصر على العامل المادي فقط؟ طبعا، لا. انه فقدان الامل نفسيا بعد وصوله الى حائط مسدود. لانه لو وجد شخص واحد الى جانبه، من العائلة او من الاصدقاء لمساعدته في ازمته هذه، لما كان اتخذ هذا الخيار.

■ هل في احراق النفس رسالة موجهة الى جهة معينة، او الى مرجعية غائبة؟ من هي هذه المرجعية، وماذا اراد ان يقول لها من خلال انتحاره بهذا الشكل؟

□ باعتماده هذا الاسلوب في الانتحار، في وسط ملعب المدرسة التي رفضت مواصلة تعليم ابنته، اراد ان يقول انه محترق داخليا واجتماعيا. لا مشكلة لديه في احراق نفسه جسديا، لانه انسان ميت على الصعيدين الاجتماعي والنفسي. رسالته هذه متعددة الاتجاه. اولا، الى المرجعيات السياسية والدينية والاجتماعية العاجزة عن رؤية المواطن المحترق فعليا في بلده اقتصاديا واجتماعيا ونفسيا كي يقول لها، انا نموذج موجود في المجتمع على الرغم من عدم تحسسكم بي كمواطن، لكنني بانتحاري هذا اكدت وجودي، فلم اعد منسيا. ثانيا، الى المدرسة التي رفضت تعليم ابنته كي يقول للمسؤولين فيها لقد قتلتموني. ثالثا، الى زوجته ليقول لها انني استقيل من الحياة فانا لم اعد قادرا على القيام بما هو عليّ تجاهك وتجاه ابنتنا. رابعا، الى ابنته لكي يبلغها انه قتل نفسه كي يعلمها. في فعله هذا حمّل ابنته شعورا بالذنب مدى الحياة يلتف حول فكرة والدي قتل نفسه كي يعلمني. لقد ظلم ابنته.

الباحثة في علم الاجتماع السياسي الدكتورة هدى رزق.

■ لماذا لم يعد هناك حلول وسط عند الناس في خياراتهم الاساسية في الحياة؟

□ السبب فقدان الامل في كل المرجعيات التي يتكوّن منها المجتمع اللبناني. في تسعينات القرن الماضي كان الاتجاه نحو الانتاج النيوليبرالي، او الليبرالية المتوحشة. في حقبة ما قبلها كان الناس يتجهون بغالبيتهم نحو الاشتراكية او الشيوعية في وقت كانت الليبرالية خجلى من ظهورها. في السابق، كان السياسي يأكل ويطعم غيره، الامر نفسه كان يحصل مع السلطة الدينية، عندما تهتم بغيرها وتطعمه، او تتولى تعليم اولاده. المعروف عن مدارس الراهبات، سابقا، حض اهالي التلامذة الاغنياء على مساعدة التلامذة الفقراء في المدرسة بدفع اقساطهم المدرسية. لكن مع دخولنا في النمط الاقتصادي الجديد، اي الانتاج الليبرالي المتوحش، ازداد الغني ثراء والفقير اصبح اكثر فقرا، فيما الناس كلهم تقريبا، باتوا يلهثون وراء المادة. اصبحنا فرديين، وفقدنا القيم الاجتماعية والروحية وباتت العلاقات بين البشر قائمة على المادة والمصلحة الشخصية، ولا علاقة لها بالجوهر. من ناحية اخرى، يشعر المواطن بأنه اداة تستخدم في البلد، تفيد ولا تستفيد، تحديدا، من خلال الانتخابات النيابية التي تنتج السلطة السياسية، فيسلّم المواطنون انفسهم وسلطتهم لمن اقترعوا لهم في الانتخابات النيابية ليحكم هؤلاء بسلطة الناس التي جيروها الى مرجعية متلهية بالربح الذاتي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي. كان المواطن، هنا، مثابة وقود يستعمل لانتاج السلطة السياسية المتداخلة مع السلطة الدينية التي تستعمل المواطن ايضا ليكون لها تأثيرها على السلطة غير الروحية. فتأججت الانا في هاتين المرجعيتين، السياسية والدينية، فيما المواطن متروك بلا رعاية اجتماعية او اقتصادية. في الماضي، كانت المرجعيات الدينية مهتمة بالانسان والمجتمع، اما اليوم فلم تعد مرتبطة بهما، كونها تمارس السلطة الى جانب السياسيين. فاصبحنا محكومين من سلطتين، روحية ومدنية ـ سياسية، لا سلطة للمواطن عليهما. لذلك اقول، نحن اليوم امام مشكلة اجتماعية كبيرة.

■ ما هي بالتحديد؟

□ هي الانقسام المناطقي والطوائفي في لبنان بعد الحرب، حيث لا وجود لتعاضد اجتماعي او وطني بين ابنائه. المؤسف في هذا المجال، عدم القيام بدراسات حول الحرب وتأثيرها على اللبنانيين، في وقت كان من المفترض بنا التفرغ لهذه المسألة بعقد خلوات متواصلة لدراسة تأثيراتها المضرة على الانسان، كأن النهوض من الحرب هو في اعمار الحجر لا البشر.

■ اي حلول تنقذ المواطن اللبناني حاليا؟

□ ما بعد الحرب العالمية الثانية قام الالمان بعمل مهم جدا، هو تعليم كبار السن لخلق حوافز جديدة لديهم تؤهلهم لبدء مهن جديدة. في لبنان، هناك منظمات المجتمع المدني التي تعمل وفق اجندة الدول المانحة، لا وفق حاجات المجتمع اللبناني. صحيح ازداد عدد هذه المنظمات، لكن بسبب ارتباطها بالجهة المانحة المرتبطة اصلا بسياسة الدول التابعة لها، لم تفعّل منظمات المجتمع المدني دورها كما يجب ان يكون ضمن اطار عملها لايجاد حلول لمشكلات المجتمع اللبناني. في استطاعة هذه المنظمات لعب دور فاعل في هذه الازمة الاقتصادية ـ الاجتماعية يختصر بتدريب العاطلين عن العمل على مهن اخرى جديدة تتماشى مع سوق العمل الحالي، كي يصبح المواطن اللبناني منتجا. وكما يقول المثل الصيني: "بدلا من ان اعطيك سمكة كل يوم اعطيك صنارة لتتعلم صيد السمك". هذا الدور من مسؤوليات منظمات المجتمع المدني. من جهة ثانية، نحن في حاجة الى ان تتبع الدولة سياسات اجتماعية حديثة، كضمان الشيخوخة وتأمين الطبابة للمواطنين وتوفير مساعدات اجتماعية لهم، لا اعني بها مواد غذائية، بل رواتب شهرية للعاطلين عن العمل كخطوة متقدمة مشابهة لما تقوم به الدول الغربية، ما لا يعني ان المواطن سيعيش من مال الدولة الخاص، بل من باب مساعدته على ايجاد عمل كي يكون منتجا، لا تركه لمصيره.